الفصل الرابع

الشعر أداة للتاريخ

إذا كـــان الـــتاريخ إلى حد ما تفسيرا للقرآن ، فلدينا من الاسباب ما يجعلنا نذهب إلى أنه تعليق على الشعر إلى حد ما أيضا . ونقابل مرارا النظرية القائلة بأن الشعر هو المنهج القبلى لتدوين التاريخ ، وينشد قدماء المؤرخين الاشعار الشاهدة على كبار الحوادث ؛ وكان ذلك أمرا يسيرا عليهم لأن التنظيم العسكرى كان لا يزال قبليا ، وكانت الافراح والآلام التى يتغنون بها خاصة بالقبيلة .

ونجد مثالا من أقدم الامثلة لهذه الصورة من التأليف التاريخى فى سِفْر القضاة، حيـــث يبدو أن أغنية ديبوره كانت النواة التاريخية التى تعلقت بها الاخبار المنثورة تعـــليقا عليها ؛ ومن المصادر التى أخذت منهـــا الاجزاء التاريخية من العهد القديم أخـــبارها القديمة كتاب يسمى وغَنّى* ، وهو مجموعة من القصائد القبلية التى تخلد الانتصـــارات والهـــزائم . ونقرأ بالمثل عن قصائد سجلت فيها ألوان الكفاح بين الأوس والخزرج قبـــل مجيء النبى ، الذى حرم إنشادها ، إذ كان يرمى إلى تدعيم الأخوة بين القبائل . وواضح أنه لم تتح فرصة البقاء إلا للقصائد ذات الميزة الفائقة أو الـــتى تسجل نصرا حاسما أو هزيمة من هذا اللون من الشعر ؛ وقد وجد العلماء الفرنســـيون الذيـــن جمعوا قصائد الافريقيين الشماليين أنها جميعا حديثة العهد ، إذ غطـــت الأزمـــات الحديثة على الازمات القديمة التى أثارت الفورات الانفعالية ، فأعقب ذلك حلول القصائد الحديثة محل المنظومات القديمة . ومن الطبيعى أن هذا

---

* مؤكد أن ذلك هو المعنى الحق لكلمة « يشـــار » .

المصـــدر للـــتاريخ الإسلامى القديم لفت أنظار النحاة والمشتغلين بالآثار القديمة ، الذين غالبا ما تروى عنهم الاشعار . ولم يكن اهتمامهم اهتمام المؤرخ ، الذى همه الاول مـــا يعمله الناس ، وإنما اهتمام الناقد الادبى ، الذى يعنى أولا بما يقولـــون ، أو اهتمام الأثرى ، الشغوف بمعرفة عاداتهم ومعتقداتهم .

وهـــناك بعض المشاكل البارزة التى تصاحب هذه الطريقة فى تذكر الأشياء . فمـــن الممكـــن طـــبعا أن يذهب المحاربون الابطال مثل عبد الله بن الزبير المطالب بالخلافـــة ، إلى القتال وهم ينشدون الاشعار التى نظموها ، وأن يتذكر الاشخاص الذيـــن يواجهـــون الموت فى صفه هذه الابيات ، وأن يخلصوا من المعمعة سالمين ، فيحـــتفظوا بالاشعار ويروونها . وممكن من جهة أخرى أن يتصور المرء ما قد يقوله بطل فى هذه المناسبة ويصوغه شعرا ، ثم ينسبه إليه لمنح الرواية معالم الحياة . ونسبة الأقوال كذبا إلى الاشخاص الموصوفة أعمالهم أمر مألوف بحيث لا يحتاج إلى مثال . ونجـــد فى مجموعات الرسائل النموذجية رسائل يقال إنها كتبت فى مناسبات مهمة ، كاسترجاع بيت المقدس من الفرنجة ، وغالبا ما يتعذر التمييز بينها وبين ما قد كتب فعـــلا حينـــئذ . ومن المعروف فى حالة سيرة ابن إسحاق أن القصائد التى يزين بها الأخـــبار ، ويفـــترض أنها قيلت بُعيد الاحداث المهمة فى حياة النبى أو على صلة مباشرة بها ، وبعضها قصائد طويلة ، كُتبت إجابة لطلب ابن إسحاق، ولذلك يحق الشـــك فى الحـــالات الاخرى . ولكن حيث تكون الصحة مؤكدة ، كما فى حالة القصـــائد الـــتى نظمها الشعراء العباسيون يمجدون أعمال ممدوحيهم ، نجد طبيعة القصـــائد تجعـــلها لا تصلح لنقل المعلومات المفصّلة أو الدقيقة . فهى تحفظ بعض أعلام المواضع والاشخاص ، ولكن من الطبيعى ألا صلة بينها وبين التواريخ وفنون القتال .

ومن المعروف أن الاخبار تكتسب حياة إذا ظهر الاشخاص فيها يتكلمون ، ولا يقتصر دورهم على القيام بالأعمال وحدها ، وقد روعى ذلك طويلا ؛ ولكن هذه العملية ، إن لم تُحدد تحديدا صارما ، أحالت التاريخ رواية . والمؤرخ الذى اشتط فى هذا الامر هو الدينورى إذ يروى فى سرده الحوادث التى أدت إلى موقعة صفين محادثة بين معاوية والشخص الذى وفد عليه بأخبار مقتل عثمان ، ويحض معاوية على طلب الخلافة لنفسه ، وينشد بعض الابيات ، فيسر معاوية بالاقتراح ، ويرتجل شعرا : قصيدة طويلة . ثم تصله رسالة من على ، يدعوه فيها إلى البيعة له ، وتُروى الرسالة كاملة . ويستشير معاوية أقرباءه ، فينصحه أخوه عتبة بطلب مساعدة عمرو بن العاص ، فيبعث معاوية رسالة إلى عمرو ، وتُدوَّن هذه الرسالة التى تستدعى الاخير . ويصل عمرو ، ويستطيع المؤلف أن يورد الحديث بين الاثنين، إذ يذكر معاوية ثلاث مشكلات وقعت له ، آخرها طلب على . فيطرح عمرو الأولين لسهولة التخلص منهما ، ويشير إلى مشقة مقاومة على ، ويسأل ما هى مكافأته إن هو أعان معاوية . فيطلب إليه الأخير أن يذكر شروطه ، فيطلب مصر ، فيسأله معاوية أن يمهله للتفكير ، ثم نستمع إلى حديث بينه وبين عتبة ، الذى ينصحه بقبول شروط عمرو . ويطلب معاوية إلى أخيه أن يقيم ليلته عنده ، فيسمعه ينشد بعض الاشعار ، يحضه فيها بالمخاطرة ، فيجعله ذلك يستقر على رأى ما . حينئذ يقترح عمرو الخطوة الأولى ، وتُبْعَث إلى على رسالة شعرية ، فيأمر على بالاجابة عليه شعرا .

ويثير ذلك العمل الذى يصبغ التاريخ بصبغة روائية بعض الشك فى أية حالة، وخاصة عندما لا يذكر المؤلف (كالدينورى) رواته . إذ يجب أن يكون راوى المحادثات السرية ، إن كان من الممكن حفظها إطلاقا، أحد المشتركين فيها ، وحيثما لا ينسب الحديث إلى أحد الجانبين المشتركين فيه ، فلا إمكانية كبيرة

لروايـــته . أضـــف إلى ذلك أننا نجد الرسائل التى يقول ذلك المؤلف إنها تبودلت مختلفة تماما عما يرويه مؤرخ آخر ، هو ابن قتيبة ، حقا إن المعنى واحد إلى حد ما ، كما قد نتوقع ، لأن ذلك ما تؤيده الوقائع . من الطبيعى أننا نستطيع أن نتخيل أن يـــنظم معاوية وأخوه والباقون الشعر فى هذه المناسبات ، ولكن المحتمل أنهم كانوا مشـــغولين بأمور أخرى . ومن الواضح أن ما نجده فى هذه المحادثات ، التى يضيف إليهـــا المؤرخـــون الآخرون آخرين ، هو حل المشاكل التى تقع . ما الذى دفـــع معاويـــة إلى مقاومـــة على ، وأن يستدعى عمرا ؟ كيف استجاب عمرو للدعوة ؟ هذه الاسئلة وأمثالها تعرض حين يرغب المؤرخ فى الغوص وراء دوافع الاعمال التى يســـجلها. فالمـــنهج المستَخدَم هو التظاهر بمعرفة كل شىء ، الذى يدعيه مؤلف الـــروايات بالضرورة ، فلا أسرار تخفى عليه . وذكر الشعر حيلة لتزيين السرد ، يســـتخدمها كتاب الروايات من العرب استخداما منتظما. فالمتحدثون فى المقامات يتزلقون إلى الشعر عندما تتاح لهم الفرصة لذلك .

رأينا أطرافا من الضعف الملازم لاستخدام القصائد سجلات للحوادث . بل لا يخـــلو منها أمثال قصائد مـــكـــولى Macaulay عن روما القديمة ، لو كان لديـــنا ما يماثلها متناولا أحداث بلاد العرب الجاهلية أو حوادث القرن الأول من الإسلام ، وان تمتعت بالاستمرار التاريخى وعدم التقطع وببعض التفاصيل الجغرافية وغير الجغرافية مما يؤلف سجلا واضحا للأحداث . ولكن ليس من اليسير أن نعثر فى شـــعر العرب القديم على ما تمكن مقارنته بتلك القصائد ، بل بأغنية ديبوراه . فمـــن المعـــروف أن النظم العربى غير ملائم للاستمرار والاتصال : فالبيت وحدة مستقلة ، وواهن الصلة عادة بما يسبقه أو يعقبه : ولا يربط بينها المعنى بل الاتفاق فى القافيـــة والـــوزن . ومن ثم فالشعر الذى يعالج التاريخ القبلى وغيره فى أحواله العاديـــة تلميحى أكثر منه تاريخى أو قصصى ، وإذا ما وصلت إلينا القصيدة التى

تعـــالج تلك الاحداث كاملة ، وجدناها تخلط الاحداث التاريخية بأمور أخرى غير ذات صـــلة بها . ولذلك نخرج بقليل من الأمور التاريخية ، من المعلقات ، وخاصة معلقة زهير ، التى تمدح بعض الرجال لسعيهم فى إقرار السلم بين قبيلتين متحاربتين وتحمـــلهم المغـــارم فى سبيل ذلك . ولكن وصف معلقة زهير بأنها قصيدة قاصـــّة ballad يشوه صورتها تشويها بعيدا . فهى تعليمية اكثر منها قصصية .

ولا يختلف عن هذا الطابع الاشعار التاريخية التى تؤلف « ديوان العرب » . وتمدنـــا بأمثـــلة ذلـــك حماسة أبى تمام . فهى فى كثير من الاحوال قطع مختارة من قصائد، لأنها تعالج موضوعات خاصة . وفى العـــادة تترجم لصاحبها ، وتحتاج إلى تعـــليق تاريخى ليوضحها . وكان على الاشعار أن تعيش معتمدة على مزاياها ، وفى تـــلك الحالـــة يمدها ثقات الرواة بالمعلومات المفسرة . وغالبا ما ثار الشك الخطير حـــول المناسبة التى قيلت فيها الاشعار، بل اختلف العلماء فى مؤلف بعض الابيات المشـــهورة . أضف إلى ذلك وجود حالات بقيت فيها الحادثة فى ذاكرة الرجال أو وصـــلت إلى علمهم بطريقة ما ، فنُظمت الابيات لتلائمها . وأحيانا يغرينا الموقف عـــلى الابتســـام من مسلك المؤرخين والمنقبين الذى لا تمحيص فيه ، إذ يذكرون الاشعار التى لا يمكن أن تصدر ممن تنسب إليه .

ونجـــد فى دواوين الشعراء العباسيين ما يقترب من القصيدة القاصّة ballad أكثر من اقترابه من التلميحات العارضة . إذ ترمى أكثر من قصيدة من طوال أبى تمام ، والبحترى ، والمتنبى ، والشريف الرضى ، والتعاويذى ، وغيرهم إلى الاشادة بـــبعض الاحداث أو المشاهد التاريخية. ويصير لما تعطينا هذه القصائد من معلومات خطورتها، حين يكون الديوان مرتبا حسب زمن القصائد ، وتمدنا عناوينها بتواريخ مناسباتها . وفى بعض الاحوال تسجل القصائد أحداثا ذات أهمية غير قليلة لا تذكر عـــنها كتب التاريخ شيئا ، فهذا هو البحترى يصف موقعة بحرية يبدو أن المؤرخين

المعاصـــرين له لم يتنبهوا لها . ويصف فى إطناب قصورا بناها خلفـــــاء عصره ، ولا تذكرها كتب التاريخ .

{ أرجوزة عبد الله بن المعتز }

ووجدت فى القرن الثالث الإسلامى فكرة الاستعاضة عن القصيدة القاصة بما هـــو أشـــبه بالحوليـــة chronicle المنظومة . فقد أفرد عبد الله بن المعتز، لحياة المعتضد وعهده ، قصيدة سماها « كتاب سيرة الإمام » . بل يذكر تاريخ وفاته فى البيت :

ومات بعد مئتين قد خلت فى عام تسع وثمانين مضت

والشاعر أديب مشهور ، يكثر الاقتباس من أقواله الادبية المتعددة الالوان ، وله ديوان جيد . وقد فضله على المقتدر الطفل ونصبه على الخلافة جماعة منها على ابـــن عيسى ، الرجلُ الفاضل ، الذى ذهب إلى أن الواجب على العقلاء تنصيب رجـــل ذى خـــبرة بالأمور، كان ذلك بعد وفاة الخليفة المكتفى ، عندما بدا كأنما تنصـــيب الخليفة فى يد الوزير . ولكن الجند المخلصين لذكرى المعتضد، عارضوا ذلك التعيين ، فكانت خلافة عبد الله قصيرة الاجل .

وتختـــلف القصيدة التى تبلغ ٣٦٣ بيتا عن القصائد القاصة ، إذ إنها وصف متصل الحلقات لغزوات المعتضد ، وتستهل بعد البسملة بقوله : إن النبى :

مضى وأبقى لبنى العباس ميراث ملك ثابت الآساس
برغم كل حاسد يبغيـــه يهدمه كأنه يبنيـــــــه

يلى ذلك العنوان :

هذا كتاب سيرة الإمـــام مهذّبا من جوهر الكـلام
أعنى أبا العباس خير الخلق للملك قول عالم باخـق

ويستطرد الشاعر فى القول :

قام بأمر الملك لما ضاعـــا وكان نهبا فى الورى مشاعا
مذللا ليست له مهابـــه يخاف إن طنت به ذبابـه
وكل يوم ملك مقتـــول أو خائف مروع ذليـــل
أو خالع للعقد كيـما يغنى وذاك أدنى للـردى وأدنى

وتضـــم هذه الفقرة وصفا صحيحا لفترة الفوضى التى أعقبت قتل المتوكل واســتمرت إلى أن أعتلى المعتمد الخلافة ، وعلى الرغم من الاغراق فى المبالغة فى عبارة « كل يوم » ، نجدها على لسان أحد المتحدثين فى تاريخ الطبرى . ثم يصف شغب الجند :

ويطلبون كل يوم رزقـــا يرونه دينا لهم وحقـــا

ثم يُعلن :

وكان قد مزق ثوب الملك طوائف إيمانهم كالشـرك
فمنهم فرعون مصر الثانى عاصى الاله طائع الشيطان

يريد ابن طولون :

والعلوى قائد الفســاق وبائع الاحرار فى الاسواق

ثم يعدد آخرين ، ويقول إنهم جاروا على الرعيـــة :

[والدلفى العود والصفار] ومنهم إسحاق البيطـــار
أعلم خلق الله بالمـــاخور وعـــدد مثلث وزيـر
ومنهم عيسى بن شيخ وابنه كلاهما لص حلال لعنـــه

يدعون للإمام كل جمعـــه ولا يردون إليه قطعـــه
ويأخذون مـــالهم صراحا ويخضبون منهم السلاحـا
ولم يزل ذلك دأب النـاس حتى أغيثوا بأبى العبـــاس
كان لنـا كأردشير فارس إذجدّ فى تجديد ملك دارس

وكـان المصدر الرئيسى لمتاعبه فتنة الزنج ، الذين سيطروا على البصرة عدة سنوات وهزموا جيوش الخلافة المرة بعد المرة . ويعزو الشاعر فضل القضاء عليهم إلى المعتضـد ، الذى عاون أباه الموفق فى هذه المهمة الشاقة ولا شك. واسم الثائر الحسن . ويطلق عليه الطبرى عادة اسم « القبيح » ؛ ومن الواضح أن فتنته ذات جـانب دينى إذ ادعى قائدها أنه من أبناء على ، وقال فى بيانه الذى يرويه الطبرى إنه لا يقاتل من أجل دنيا يصيبها. ويؤيد وصف ابن المعتز له أقوال الطبرى :

والبائع الاحرار فى الاسواق وصاحب الفجّار والمـرّاق
وقاتل الشيوخ والاطفـال وناهب الارواح والاموال
ومالك القصور والمسـاجد ورأس كل بدعة وقائـد
إمام كل رافضى كافـر من مظهر مقالة وسائـر
يلعن أصحاب النبى المهتدى إلا قليلا عصبة لم تـزدد
فكفر الناس سواهم عنـده فلعنة الله عليـه وحده
ما زال حينا يخدع السودانا ويدعى الباطل والبهتانـا
ويدخلون عاجـلا بغداذا [فلم يرالكذاب ذا ولا ذا]
وقـال : إنى أعلم الغيوبـا [لم ير فيها عالما مجيبـا]
فخرب الأهـواز والأُبُلّـه وواسطا قد حل فيه حلـه
وترك البصرة من رمـاد سوداء لا توقن بالمعيـاد

وأذاقها ما لم يسمع بمثله من ألوان العذاب . ويعدد الشاعر قواد بغداد الذين هزمهم ذلك المدعى :

ورامه موسى فمـــا أطاقـــه ... ومجّه من فيه حين ذاقـــــه

موسى بن بغـــــــا.

وقد سقى مفلح كأس القتل ... وشكّه بمخصف ذى نصل

وترك الاتراك بعد فقـــــده ... كذى يد قد قطعت من زنده

وقتـــــل ابن جعفر منصورا ... وكان قبل قتله كـــــبيرا

من بعد مـــا صابر أى صبر ... وأرجف النـــاس له بالنصر

والشيخ قد غرّقـــــه نصيرا ... وقال: حسبى فَقْد هذا خيرا

أعنى غلاما لسعيد الأعورا ... قد كان فى الحروب موتا أحمرا

حتى إذا مـــا أسخط الإلهَ ... وبلغت فتنـــه مداهـــــا

أعزى به الله هزبرا ضيغمـــا ... إذا رأى أقرانـــه تقدمـــــا

فلم يزل عاما وعاما ثانيـــا ... وثالثا يكابد الدواهيـــــا

مجاهـــــدا برأيه ونصـــله ... ومـــــاله وقوله وفعـــــله

ثم يبين الشاعر أن المعتضد فاز بالنصر النهائى بوسائل أخرى غير مجرد الشجاعة فى الحرب :

ويقبل المستأمن المنيبـــــا ... ويغفر الزلات والذنوبـــــا

ولا تراه ناقضا لعهـــــــده ... ولا يشوب باطـــلا بجده

ثم سما من بعـــــد للشامَيْن ... فجرعوا من كأسه الأمرَّين

وعرفوا عند اللقـــــاء صبره ... وشده يوم الوغى وكـــرّه

سل عنه قيلا صرعوا بشيزرا ... [وآخرا وآخرا وآخـــرا]

جاء من الشام إلى الفسطاط ... [يحث عدو الخيل بالسياط]

وحارب الصفار بعد الزنج فطار إلا أنه فى سـرج

ثم يستطرد إلى انتصارات أقل شأنا - خلعه الوزير أبا الصقر إسماعيل بن بلبل، ذا الأهمية الكبيرة ، وإن لم يذكره الطبرى إلا عرضا . وقد مدحه وهجاه الشاعر المعاصر ابن الرومى ، وخص بالذكر ادعاءه الانتساب إلى بنى شيبان من العرب . ويذكر الشاعر أنه كان خبيرا بانتزاز الأموال :

يأخذ من هذا الشقى ضيعته وذا يريد ماله وحرمته
وويل من مات أبوه موسرا أليس هذا محكما مشهرا
وطال فى دار البلاء سجنه وقال: من يدرى بأنك ابنه؟
وتاجر ذى جوهر ومال كان من الله بأحسن حال
قيل له : عندك للسلطان ودائع غالية الاثمان
فقال: لا والله ما عندى له صغيرة من ذا ولا جليله
فدخنوه بدُخان التبن وأوقروه بثقال اللبن
ثم بنى من الغصوب دارا فأصبحت موحشة قفارا
مامات حتى انتهبت وهويرى وبلغوا فى هدمها إلى الثرى
ثم إذا ما قام عن غذائه وفرغت قهوته بمائه
تناول الريشة والطنبورا فأضحك الصغير والكبيرا
ومدح أفلاطون والفلاسفه وساعدته فى هواه طائفه
وذكر السعود والنحوسا والجوهر المعقول والمحسوسا
وذرع طول الارض والافلاك وكم بلاد الصين والاتراك
واستثقلوا من قام للصلاة فكيف من طول فى القراة
فلم يزل ذاك دأب الجاهل حتى رمى بسهم حتف قاتل

وذكـــر أن وفـــاة إسماعيل أعقبها اعتلاء المعتضد الخلافة ، فأنفذت مصر إليه مالهـــا، وسارع الصغار إليه بالاذعان . ثم فحص المعتضد قوائم الجند وطرح جميع العاجـــزين : وبعد هذا الفحص سار إلى الموصل ، وقضى على السرقة والقرصنة. ويقول : وكان فى دجلة ألف ماخر ، يجبون كل مقبل ومدبر . ويذكر أسماء زعماء اللصـــوص المهزومين ، وأهمهم حمدان ، الذى هدمت قلعته : ويضطلع أبناء حمدان هـــذا بنصـــيب كـــبير فى تـــاريخ القرن التالى . كذلك هارون ، خليفة الأكراد والاعراب ، وواضح أنه كان من الخوارج ، إذ يلعن عثمان ويبرأ من على .

ثم يذكـــر الشاعر بين خدمات المعتضد تأخيره النيروز ، أى إخضاعه الخراج للـــتقويم الشمســـى : إذ أدت جباية الخراج وفقا للتقويم القمرى ، كما ينتظر ، ويظهر من المراجع الاخرى ، إلى صعوبات عظيمة ، إذ استعمل الجباة شتى صنوف الـــتعذيب لارغـــام الناس على دفعها : ولم يكن من المستطاع أن يتم ذلك إلا عن طريق الاقتراض بفوائد باهظة . ولكن الشاعر يؤكد لنا أن كل هذا قد أُبطل .

ثم يستطرد إلى إعجابه بمبانى هذا الخليفة ، التى لم يبن بان من الخلفاء مثلها . وكان فى أحدها شجرة صناعية :

وما رأى الراءون مثل الشجره ذات غصون مورقات مثمره
ولم تكن غرسا ترابه الثـــراء ولم تكن من شجر يسقى بماء
لكنها تخبر عـــن حكـــيم موفق مجـــرب عـــــليم
مفكر من قبـــل أن يقـــولا ويحسن التفهيم والتمثيـــلا

مـــثل هـــذه الاعمال (وبيعدد كثيرا غيرها) شاهدة على قوة الإسلام .

ثم يعلـــــن :

ومعظم الفتوح فيه آمـــــد معقل كل فاجر معانـــــد

لم تر قط مثلهـــا مدينـــه منيعة بسعدها حصينـــه

ويذكـــر الشاعر أن المعتضد استولى عليها بعد حصار طويل .

وكانت مقر عيسى بن شيخ ، المذكور قبلا .

ثم أتى الرقـــة ينـــوى أمرا فلم يزل فيها مقيما شـــهرا

وبادرت مصر إلى رضـــائه تنتظر الاصعاق من سمائـــه

وحملت أموالهـــا إليـــه وخافت البطشة من يديـــه

وعـــند عودته رحب به ثلاثة ، هم الامير والوزير وأبو الحسين القاســـــم :

ثلاثـــة للملك كالأثـــافى قوادم ليست من الخـــوافى

ويمدح الخليفة لبراعته فى اختيار أمثال هؤلاء المساعدين .

ويســـتطرد إلى القـــول بأن المعتضد رأى النبى فى المنام ، بعد عشر سنين من حكمـــه ، فشكره لخدماته ، فأعقب ذلك القبض على إسماعيل الصفار الثائر الذى حمل إلى بغداد فى القيود : وهزيمة ابن زيد الثائر فى طبرستان .

ثم يذكر انتصارات أخرى متنوعة ، بعضها مثير للحيرة والغموض : ثم كلمة عن القرامطة ، ذوى الآجام ، الذين سنوا شرائع الفساد ، وأُهلكوا إهلاك عاد — وتلك مبالغة لأن القرامطة كانوا مصدر قلاقل خطيرة فى العهود التالية . وما يذكره ابن المعتز عنهم له أهميتـــــه :

كانوا يقولون : إذا قتلنـــا صبرا على ملتنا رجعنـــا

من بعد أيام إلى أهلينـــا فقبح الرحمن هذا الدينـــا

يجاهدون عن إمـــام مختفى يقرب الوعـــد لهم ولا يفى

ثم هجوم على أهل الكوفة المفترض أنهم شجعوا الحسين على الثورة ثم تخلوا عنه : ويشبه الدموع التى سفحوها عليه بدموع التماسيح – ولا بد أن ذلك القول مثال مبكر من المثل . ويشير أيضا إلى كثرة الاديان والمذاهب فى هذه المدينة ، الكثرة التى نسمع عنها فى بعض الاقوال الاخرى . ولم يزل أهلها فى حيرة من دينهم : فلا هم يهود ولا نصارى : والمسلمون منهم براء . بل هم رافضة أشتات . يجحد بعضهم الرسول ، ويدعى أن جبريل غلط فى فعله ، أى أعطى الرسالة التى كان على مقصودا بها إلى محمد . ويقول بعضهم إن عليا ربنا : وحسبنا ذلك دينا . ومنهم الثوار والعصاة ، الذين يجيبون كل دعوة إلى بيعة جديدة ... ونبيهم ابن أبى القوس ، الذى خفف عنهم الصلوات ، وقال : ناب بعضها عن بعض .

ولو قورنت هذه القصيدة بتاريخ الطبرى وجد أنها تقاربه فى الصبغة التعليمية: إذ يؤرخ ابن المعتز الاحداث فى حالة أو اثنتين بالشهر ، ولكن ليست السنة التى يشير إليها واضحة . ولقد وفق فى اختياره الرجز وزنا لهذه القصيدة المؤرخة : فتجنب بذلك الصعوبة الكبيرة فى التزام قافية واحدة فى أبيات تبلغ المئات . وعلى الرغم من اصطباغ بعض الابيات بالصبغة النثرية بطبيعتها ، لازال كثير منها يتمتع بصفة اللغة المذكورة فى البداية . ولذلك فهى أقرب إلى التاريخ كثيرا منها إلى القصائد القاصة . ولكنها تشارك هذه القصائد فى التأثر بالهوى الذى لاحظناه : إذ لا نستطيع أن ننسب إلى المعتضد محقين كل ما يعزى إليه فيها ، ولا يخطر فى خلد الشاعر أن الأمر نفسه قد يحدث لأعدائه . ومهما كان الأمر ، فإننا لو لم نحصل على أى تاريخ لهذه الحقبة ، لوجدنا فى ابن المعتز عوضا حسنا عن واحد من كتب التاريخ .

{ رائية أبى فراس الحمدانى }

ونجـد مـثالا آخر للقصيدة المؤرخة فى قصيدة أبى فراس الحمدانى ، ابن عم سـيف الدولـة المشهور ، الذى أُسر فى إحدى الحروب الأخيرة مع البيزنطيين ، وتوسـل سدى إلى ابن عمه ليسعى فى إطلاق سراحه . والقصيدة التى يروى فيها مجموعـة كبيرة من الاحداث من اللون القديم المعروف باسم المفاخرة ، التى يشيد فيها الشاعر بنفسه أو قبيلته . وبعد مقدمة غزلية فيها شىء من الطول يفرد الشاعر ما يزيد على ١٥٠ بيتا لتاريخ الحمدانيين : وهى من بحر الطويل ، قافية الراء .

ويسـتهل هـذا الجزء بمدح سيف الدولة ، الذى أغنته أمجاده ، يقول ، عن تذكـر الامجاد القديمة لاسرته . ولكنه يسرد تاريخها القديم ، مبتدئا بجد لم يُسمِّه ، يقـول إنه جمع شمل بنى تغلب وقد أحدق بهم خطر التفرق ، وتحمَّل ديات مئة قتيل ذُبحـوا فى إحـدى المعارك القبلية . وأضاف فرد آخر من القبيلة الامام وجيشه . وحكم جد آخر الديار وعال الرعية فى المحل الذى استمر ثلاثة أعوام .

أسا داءَ ثغر كان أعيا دواؤه وفى قلب ملك الروم داءٌ مُخامـر

وبـنى قلعة ليحمى الثغور ، واضح أنها هدمت ، ولكن الشاعر يتنبأ باعادة بنائها . ولما ألمت الازمة بالديارين (ديار بكر ومضر) أزال آثارها بكرمه . وعمه هـو الذى أردى فاتكا والقتـّال . وسار إلى دار الخلافة فأحرقها والجيش محاصر لها. ويختلف وصف مسكويه لهذه الأحداث أشد الاختلاف . فقد هاجم حسين بن حمـدان ، العـم الذى يشير إليه الشاعر ، قصر الخليفة المقتدر ، فى مطلع عهده ، ولكنه واجه من المقاومة ما جعله ينسحب ويفر إلى الموصل . ويعزو الشاعر إلى هذا الرجل مجموعة أخرى من المفاخر التى إما أخفاها المؤرخ أو أبرزها فى صورة مخالفة، مخالفـة شـديدة : فالانتصارات المختلفة التى يدعيها الشاعر لعمه يدعيها المؤرخ

لمؤنس ، القائد العظيم فى ذلك العهد . وتلك هى الحالة فى فتح مصر ، وهزيمة السَّبْكرى ، والقبض على يوسف بن أبى الساج ، الذى يطنب المؤرخون فى روايته بعض الاطناب ، دون الاشارة كثيرا إلى الدور الذى قام به الحمدانى . يلى ذلك فى القصيدة مجموعة من الامجاد الجاهلية التى ليس من اليسير التحقق منها . ويتخلص الشاعر من هذه الامور إلى استيلاء سيف الدولة وناصر الدولة على بغداد ، ويعدل بعض العدل فى تصويره شاهدا على مساعدتهما الخليفة أيام كان لا نصير له ، وإعادته إلى مقره وتنصيبه على الخلافة ، وسياسة أمور المسلمين سياسة يشكرها الدين والإسلام . ويصور قتل ناصر الدولة لابن رائق ، الذى يبدو فى التاريخ حدثا من أحداث الخيانة الكبيرة ، فى البيت :

ولما طغى عجلُ العراق ابن رائق شفى منه لا طاغ ولا متكاثر

ومما تجدر ملاحظته أن الشاعر يحذف فى تعديده أمجاد أسرته ذلك الحدث الذى يؤثر فى قارئ تاريخ مسكويه كل التأثير – ألا وهو خيانة أبى الهيجاء للقاهر. ويخصص ختام القصيدة لمفاخر سيف الدولة، وهى من ناحية شبيهة بما يقوله المتنبى المشهور . ويذكر بين التفاصيل أن الأخشيد بما رأى ما قد أظلّه ، يريد قوة سيف الدولة فى حلب – عزم على مهادنته ، ورأى أنه ينال بالصهر ما لا ينال بالعساكر.

ولا شك أن قصيدة أبى فراس هذه أكثر شاعرية من قصيدة ابن المعتز ، ولكنها تكشف عن نقائص أسلوب القصائد القاصة بدرجة كبيرة . فالأسلوب تلميحى إلى درجة عظيمة : ولا يذكر الشاعر أسماء أجداده وأعمامه ، ولذلك لا تتضح القصيدة بدون شرح . والأعمال المشاد بها فيها كثير من المبالغة ، أو يساء إبرازها إساءة كاملة ، كما نستطيع أن نتبين من المراجع الأخرى . ومن المحقق أن

سيرة سيف الدولة لم تكن مجموعة من الانتصارات المتصلة الحلقات ، ولكن لا يلقى الاهـــتمام أو لا يشار إلا إلى الانتصار . أضف إلى ذلك أن من الواضح أن الشاعر لا يعـــير الـــترتيب الـــزمنى انتباها ، ومن المحال أن تستخرج من الابيات ما يشبه الوصـــف المتسلســـل المـــترابط لاحدى حملات سيف الدولة . وواضح أن فيها إشـــارات متـــنوعة لها أهميتها ولا بد أنها تشير إلى وقائع تاريخية ، ولكنها محيرة : والمحـــتمل أن الشروح ، فى حالة عثورنا عليها ، لا تتناول إلا الجوانب اللغوية كما يصـــحف شـــارح نسخة بيروت ابن رائق ويجعله ابن زائق، ويخبرنا أن الاخشيد «اسم رجل».

وإذا مـــا كانت القصيدة ذات قيمة متوسطة من الجانب التاريخى فإنها على شىء من الأهمية باعتبارها مثالا من أمثلة « المفاخرات » ، وهو إن كان متأخرا ، إلا أنـــه لا يشك فى صحته ، ومن نظم شاعر موهوب ومشهور . أضف إلى ذلك كونه ، باعتباره ابن عم سيف الدولة وناصر الدولة ، اللذين اضطلعا بأدوار عظيمة الاثـــر فى سياســـة العصر ، أقدر على مدحهما من شاعر البلاط العادى ، الذى تكـــون معرفـــته براعيه أقل ألفة وحرصه فى أقواله أعظم . ولكن يبدو أن معرفته بحـــوادث الجيـــل السابق له مباشرة كانت على شىء من الغموض : فواضح أنه لم يســـتطع أن يسمى أعمامه وأجداده الذين يريد الاشادة بأعمالهم . ووصفه للوقائع بل الحديث عنها ليس متحيزا حسب ، كما قد رأينا ، بل يسىء تصوير الاحداث إساءة خطيرة ، إذا ما كان لنا ان نثق بكتب التاريخ . وإذن فقصيدة أبى فراس هذه تمثل خطر استخدام الشعر القاص باعتباره تاريخـــا .

{ ارجوزة ابن عبد ربه }

والمثل الثالث الذى لدينا للتاريخ المنظوم موجود فى مجموعة الكاتب الأندلسى ابن عبد ربه . وهى قصيدة تصف أعمال الخليفة عبد الرحمن الثالث ، أول من تلقب خليفة من الأمويين فى الأندلس . وهى من بحر الرجز ، كقصيدة ابن المعتز ، ولكنها تختلف عنها إذ تنقسم إلى أقسام مؤرخة : فهى إذن على نظام الحوليات . وطبيعى أن لغتها مادحة ومبالغة ، ولكنه يذكر قوائم بالاماكن التى أخضعها عبد الرحمن فى اسبانيا ، ولا يزال كثير منها يحتفظ باسمه إلى اليوم كألبيرة مثلا : ويسرد فى بعض الاحوال تفاصيل دقيقة عادلة . يقال إنه فى عام ٣٠١ هـ غزا قرمونة ، وكان ثار فيها ابن سوادة ، فسأله أن يمهله شهورا، يكون بعدها عبده المأمور . فأسعفه الامير ، وعاد بالفضل . وهاك الابيات المتعلقة بالسنة التالية :

{ سنة اثنتين وثلاث مئة }

كان بها القفول عند الجيشه ... من غزو إحدى وثلاث مئه
فلم يكن يدرك فى باقيها ... غزو ولا بعث يكون فيها

وتلخص الفقرات التالية الوقائع ، وهى على قسط حسن من الوضوح والتفصيل ، وإن لم تكن شاعرية تماما. وهاك ما جاء فى سنة ٣٠٤ هـ .

وبعدها كانت غزاة أربع ... فأى صنع ربنا لم يصنع
فيها يبسط الملك الاواه ... كلتا يديه فى سبيل الله

وذاك أن يقود قـــــائدين ... بالنصر والتأييد ظـــاهرين
هذا إلى الثغر و ما يليـــــه ... على عـــدو الشرك أو ذويه
وذا إلى شم الربا من مرســيه ... وما مضى جرى إلى بلنسيه
فكان من وجهه للساحـــــل ... القرشى القائـــــد القنابـــل
وابن أبى عبدة نحو الشـــرك ... فى خير مـــا تعبيـــة وشَـــكّ
فأقبلا بكل فتح شامـــــــل ... وكل ثكل للعـــدو ثاكـــل
وبعد هذى الغزوة الغـــــراء ... كان افتتاح ليـــــلة الحمراء
أغزى بجند نحوهـــــا مولاه ... فى عقب هذا العـــام لا سواه
بدرا فضم جـــــانبيها ضمه ... وعمهـــا حتى أجابت عنوه
وأسلمت صاحبهـــــا مقهورا ... حتى أتى بدر به مأســـــورا

ويـــدون تحت عام ٣٠٥ هـــ انتصارا على ثائر مسلم ، وهزيمة أيضا منى بها أبـــو العباس أحد قواد الخليفة ، وكان – يقول – أنجد الانجاد، ولكنه سار فى غير رجال حرب ، فأسلموه حين أحاط به العدو.

وتســتمر القصـــيدة من عام إلى عام وتنتهى بسنة ٣٢٢ هـــ . وهى رتيبة بشـــكل مفـــرط ، إذ تكـــرر نفـــس الأقوال ، من وصف مجموعة من الغارات ، والحصـــار، والتسليم ، والتخريب، وهدم الحصون ، والثورات ، وفرض الشروط وما إليها . ويذكر عددا كبيرا من الاسماء المحلية ، التى نالها قدر كبير من التحريف فى الطـــبعات المصرية، ولكن من المستطاع ولا شك تصحيحها بمقابلتها على كتب الـــتاريخ النـــثرية ، أو تحقيقهـــا فى الكـــتب الجغرافية. ويورد أسماء قليل جدا من الاعداء، وينعتهم بألقاب السب .

وينبغى على المرء ألا يتوقع ، مما لا يدعى أكثر من كونه قائمة بالغارات ، تاريخا متواصل الحلقات أو واضحا ، لذلك ليست القصيدة أكثر من مذكرات ، وليست بجيدة . ويجب على المؤلف ، كى يردها تاريخا ، أن يخصص دراسة أكثر من التى ذكرها للأوضاع ، ليخبرنا بشىء عن الحالة الداخلية فى المدن المفتوحة، والاسباب التى أدت إلى الثورات المتعاقبة ، والاعدادات التى أدت فى كل حالة إلى النجاح أو الفشل . يفعل ما يشبه ذلك أحسن مؤرخى الاغريق ، ولكن قليلا من الكتب العربية التأريخية تذهب إلى هذا المدى : وإن عالجت أحسن أصنافها فى شىء من الاطالة والتفصيل الحالة الداخلية للبلاد التى تسجل تاريخها ، لتزيد ما ترويه وضوحا وتعليمية. وليس من اليسير على المادح أن يقوم بشىء من هذا القبيل ، لأن الترجمة الصحيحة للملك ، أو القائد ، أو رجل الدولة ، بينما تضم وصف المصاعب التى اضطروا إلى مواجهتها، تستطيع أن تعزو إليهم فى أحوال قليلة ألوانا متغايرة من النجاح فى معالجة أمثال هذه الصعوبات : ويكشف مثل هذا القول عن وجوه الضعف والفشل ، بل من الممكن أن يكشف جرائم ، كشفه عن القدرة والنجاح ، عند المتمسكين بالفضيلة . وإذن فعلى المادح ، الذى يخاف أن يجرح شعور راعيه ، أن يقتصر على ما يسره .

ومن المحتمل أن ينظر كل قارئ إلى قصيدة ابن المعتز نظرته إلى أعظم هذه الامثلة الثلاثة من التاريخ المنظوم تعليمية وفكرية ، على حين تتمتع قصيدة أبى فراس بما يجعلها أقدر على المطالبة باسم الشعر ، وتضم حقا أبياتا على قدر كبير من الجودة . وليس فى أرجوزة ابن عبد ربه صفة تُمدح سوى السهولة التى قيل بها الرجز وربما بعض المعرفة بالجغرافيا الاسبانية . ويقترف المؤلف غلطة سخيفة حين يجعل المسيحيين يقسمون بالأصنام المذكورة فى القرآن . وقد حصلت مختاراته على

بعض الشهرة لطبيعة محتوياتها الموسوعية: ولكن الصاحب بن عباد وجدها مخيبة للآمال ، إذ كان يتوقع من كتاب لمؤلف اسبانى أن يحتوى على مواد أصيلة أكثر مما يحتوى عليه الكتاب الحالى . فاستشهد بما جاء فى سورة يوسف. الآية ٦٥ : ﴿ هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ .

وتمثل هذه القصائد الثلاثة أسمى مرحلة وصلت إليها الملحمة التاريخية فى الشعر العربى : ومن المرجح ، كما قد رأينا ، أن يفضل أى قارئ لها قصيدة ابن المعتز . أما الآثار الاخرى التى يطلق عليها لقب « القصائد المؤرخة » فأبعد من هذه كثيرا عن التاريخ. كذا قصيدة ابن بدرون ، الكاتب الأندلسى ، وهى خليط من الاشارات التاريخية ، أُريد أن تفسر فى شرح . وكذا القصيدتان اللتان تدعيان تأريخ الحميريين ، وواضح أنهما متأخرتان وغير تاريخيتين : إذ يجب أن يترك كشف الستار عن هذا التاريخ إلى من يأتى من المنقبين والأثريين .

ومهما يكن من قول ، فسيجد دارسو تاريخ الدول الإسلامية فىالدواوين الشعرية عونا لهم ، لا لأنها تسجل الوقائع ، التى قلما تسجلها ، وإنما لأنها تبرز كثيرا من الاوضاع السياسية، وترمى إلى الهدف الذى ترمى إليه الصحافة الشعبية إلى حد ما . ومن الطبيعى أن الدواوين تختلف كثيرا فى إمكانية استخدامها لهذا الغرض تبعا لسير مؤلفيها : وأكثرها تعليمية أمثال ديوان البحترى فى القرن الثالث والتعاويذى فى السادس ، ذلكما الديوانان اللذان عاش مؤلفاهما فى بلاد ملوك مختلفين وأبرزا فى أمانة المشاعر التى أثارتها الاحداث المعاصرة . وقالا ما أراد الخلفاء أو الوزراء أن يقولوه : ونستطيع ان نستخلص من قصائدهما ماكان يشغل انتباه الرأى العام ، وكيف رغب الجمهور فى اعتباره . وتجعلنا قصائد البحترى نشعر كيف أثر خطر الزنج فى شعب العراق . ويظهر التعاويذى الاحساس الذى

أثارتــه الحــروب الصليبية . أما حين لا تدوم صلة الشاعر بالبلاط ، كما فى حالة المتــنبى ، الــذى ســعى وراء حظــه فى عدد كبير من قصور الامراء ، فتقل قيمة المعــلومات المــنقولة : ويكون الشاعر فى حالة غير كافية لتدمجه فى جماعة ليصور مشاغلها تصويرا دقيقا .

هكــذا أجبــنا على سؤال يقدم أحيانا ويجاب عليه بالنفى : وهو أيوجد فى الشــعر العربى ما يماثل الملحمة ؟ (*) فإذا كنا نفهم من الملحمة القصيدة المؤرخة ، الــتى قد تمثل لها بخلاص بيت المقدس لتاسو Tasso ، أو الملاحم الهندية العظيمة ، فقد رأينا إذن أن اللغة تبين بعض الجهود للسير فى هذا الاتجاه : وطبيعى أن المؤلفين اخــتاروا بحر الرجز ، باعتباره الاسلوب الملائم للشعر التعليمى . وبينما صنع ابن المعــتز عملا فنيا ، لم يذهب ابن عبد ربه إلى أكثر من مذكرات أو موجز للوقائع يســهل تذكره عن الوصف النثرى. أما عدم إنتاج اللغة فى هذا السبيل شيئا أكثر جــودة من القصائد التى حللناها فراجع أولا إلى أن القصيدة بانتقالها الفجائى من موضوع إلى موضوع لم تكن صالحة لأن تعطى قصيدة ذات موضوع واحد مترابط . وثانيا إلى أنه لا يصلح لهذا التأليف غير بحر الرجز ، وعندما لا تلتزم القافية إلاف شطرى البيت الواحد. أمــا الصورة القديمة من القصيدة ، التى يلتزم فيها قافية واحدة ، وأما الاوزان الاخرى ، فكانت أشق كثيرا من أن تخضع لموضوع طويل . ولذلــك بقيــت أمــثال تلك المحاولات التى حللناها نادرة وإن استمر المادحون والهجــاءون بالطبع يشيرون إلى الاحداث المهمة المتصلة بموضوعاتهم : وكثيرا ما يشــير المؤرخون إلى هذه الاشارات لجمال الشعر ، أكثر من إشارتهم إليها لتأييد مايروونه .

(*) للإجابة على هذا السؤال انظر كتابى « فى الشعر العربى » . ص ٢٠ - ٣١ - المترجم .